

من الدرس البلاغي

في

الخطاب القرآني



## من الدروس البلاغية في الخطاب القرآني

القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فُصِّلَتْ: ٣] (١) ، هو القمة في البلاغة والغاية في الفصاحة ، نزل بلسان عربي على قوم صناعتهم البيان ومحكم الكلام فتحدهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولم يثبتوا أمام عظمة التنزيل ، قال تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) [سورة البقرة: ٢٣] (٢)

ويبلغ القرآن في التحدي مداه فبين للعرب - أرباب الفصاحة - أن الإنس

والجن لا يقدرين على الإتيان بمثله ، يقول المولى عز وجل :

﴿ قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) [سورة الإسراء: ٨٨] (٣)

وأسلوب القرآن العظيم - بما فيه من منانة سبك ، وجودة صياغة - نمط

إلهي خاص ، لا هو بالشعور ولا هو بالنتثر " وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن ، وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسرار دقائقه .. كان القرآن جديدا في أسلوبه ، جديدا فيما يدعو إليه ، جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ، لغته هي اللغة العربية التي كان ينطقها الناس " (٤) .

لقد فتح هذا الأسلوب القرآني الباب على مصراعيه أمام الباحثين وعلماء اللغة منذ قرون طويلة بدءا من الجرجاني في دلائل الإعجاز ، وسر الفصاحة لابن

سنان الخفاجي ، ومن جاء بعدهم ، حتى وقتنا الحاضر . نهلوا - جميعا - من منهل الذكر الحكيم العذب ، حتى امتلأت أوعيتهم ، وما نضب المعين العذب ، بل ظل سائغا للشاريين ، وكأنه يزداد ثراء وعذوبة كلما نهل منه الناهلون ، وشرب منه الشاريون ، فقد بحثوا في أسرار فصاحته ، فأدركوا القليل وبقي الكثير ، وسيظل هكذا في عظمته وتفردته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وما من موطن للخطاب القرآني إلا تجد فيه للبيان الرباني الملاءمة ومراعاة ما يستدعيه الموقف ، ففي سورة الضحى التي نزلت في أعقاب تأخر الوحي في النزول على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .. جاء الخطاب القرآني تسرية وتطيبا لخاطره عليه السلام ، لما المنهج الذي سلكته السورة ؟

إنها تبدأ بالقسم ، وقسم ممن ؟ من خالق الأرض والسماء ، يقسم بأيتين عظيمتين من آياته في خلقه ، يقسم بالضحى وما فيه من إشراق وضياء وسمي عليها تقوم عمارة الكون ، ويقسم بالليل وما فيه من دلائل على عظمة الله في خلقه فالليل سكن وراحة للإنسان وكثير من المخلوقات للاستعانة على الكد والكبح وكسب الرزق واستمرار الحياة .

ثم انظر إلى الاختيار الإلهي للقسم بالضحى والليل بالذات ، نجد أن دورة الحياة وما فيها من أمور مادية أو معنوية لا تتم إلا في زمنهما: الليل أو النهار وكان الآية الكريمة تبغي من خلال هذا القسم طمأنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أن ربه الخالق لم ينسه مطلقا ، وتؤكد الآية ذلك - أيضا - بمجيء جواب القسم منقبا ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [سورة الضحى: ٣] ، كما جاء العطف : ما ودع ، وما قلَى ليدل على الشمول ويبعد عن الذهن أية مظنة لأي نوع من أنواع الهجر والابتعاد ، وتثبت قربه صلى الله عليه وسلم من ربه .

ويستمر الخطاب القرآني في أسلوب التسرية ومنهجها الرائع بالعطف

بجملة مؤكدة باللام ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٤]

يؤكد فيها رب العزة أن عاقبة ذلك خير، وأن آخر هذا الأمر فيه الفلاح وفيه السعادة، أما وجود اللام والحرف سوف والفعل المضارع فبيان لزيادة عطاء الله له

في قابل أيامه. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٥]

وننتظع أن نرصد هذا النهج القرآني للتصريح من خلال العطف التالي:

جواب القسم	المقسم به ↓	أداة القسم ↓
﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٣]	﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [١] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [سورة الضحى: ١-٢]	الواو

والليل لما فيه من لما فيه من سكن وراحة جواب القسم منفي يؤكد منزلة

النبي صلى الله عليه وسلم عند رب العزة.

جملة ممطوفة مؤكدة باللام	جملة مؤكدة باللام (
﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٥]	﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٤]

وبعد أن أكدت الآية الكريمة منزلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه

وإن تاخر الوحي لا يعني أن الله سبحانه وتعالى ودعه وقلاه، تعود الآيات إلى

تذكير سيد الخلق صلى الله عليه وسلم بنعم الله عليه ، ورعايته وحفظه ، وما أفاء عليه من خير؛ تذكره بثلاثة أمور مهمة في حياته :

- فقد حفظه الله في يتمه وتولاه برعايته ﴿الْمِ يَحْدُكَ يَتِيمًا فَفَاوَى﴾ (٦) [سورة الضحى: ٦].

- وهداه الله برسالة الإسلام ، وأبعده عن الضلال الذي ساد في قومه ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٧) [سورة الضحى: ٧].

- وأغناه الله وأعز جانبه ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨) [سورة الضحى: ٨].  
والآية الكريمة إذ تذكر بنعم الله الثلاثة على نبيه ، تدعوه وتدعو المسلمين جميعا إلى ثلاثة أمور أخرى متعلقة بها :

- تدعو إلى رعاية اليتيم والأخذ بيده والمسح على رأسه رقة وعطفا ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٩) [سورة الضحى: ٩].

- وتدعو إلى إكرام السائل وإجابة طلبه وعدم نهره ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١٠) [سورة الضحى: ١٠].

- وتدعو إلى شكر نعمة النعمة وتذكر فضل الله بالحديث عنها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) [سورة الضحى: ١١].

ونستطيع أن نرصد هذا النهج التذكيري من خلال الخطاطة التالية :

الأمور التي ذكرت بها الآية الكريمة	ما يترقب على هذه الأمور
- يتم أعقبه إيواء	- رعاية اليتيم والعطف عليه .
- ضلال أعقبه هدى	- تذكر نعمة الله وشكرها والتحدث بها .
- احتياج أعقبه غنى	- إكرام السائل وعدم إهانته .

وواضح ما في هذا التذكير بنعم الله من طمأنة النبي الكريم إلى علو مكانته وأن الله يرعاه ، وأن عونه دائم ، وفضله سيستمر حتى ينعم بالرضا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [سورة الضحى: ٥]

ويستمر منهج التفسيرية نفسه في سورة الشرح ، فتذكر الآيات سيد الخلق بنعمة كبيرة أنعمها الخالق جل وعلا عليه وهي شرح الصدر، وإزالة ما به من بغضاء وأدران ، وجاء التذكير معتمداً على الاستفهام المنفي:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ١]

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ٢] وهو استفهام تقييري ، وعند ذكر الشرح استخدم الفعل المضارع ( نشرح ) لإفادة الاستمرار ، وعند ذكر إزالة الوزر استخدمت الآية الفعل الماضي ( وضعنا ) ليدل على التحقق ، والخطاطة التالية تبين ذلك :

دلالته	جملته معطوفة	دلالته ↓	استفهام منفي ↓
إبراز كثرة نعم الله على نبيه	﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ٢]	التقرير والإثبات	﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ١]

## استخدام المضارع

استخدام الماضي يفيد التوكيد والإثبات يفيد الاستمرار وتتوج الآيات

الكريمات هذا التذكير الطيب بنعم الله بقوله تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ٤]

قال فؤاده: "رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد

ولا صاحب صلاة إلا وينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" (٥).

وبعد هذا التذكير يأتي دور التوكيد في قوله تعالى :

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: ٥] ثم التكرار لزيادة التوكيد ﴿إِنَّ مَعَ

الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: ٦]

وكان الآية الكريمة تجزم للبشر جميعاً أن العسر دائماً يعقبه يسر وانفراج

أزمة ووصول إلى بر الأمان، وما على الإنسان إلا أن يقوم للعبادة نشيطاً فارغ البال

وأن يخلص لربه النية والرغبة.

وظواهر الدقة الأسلوبية في القرآن الكريم لا يحصيها العد، منها قول الله

تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ﴾ [سورة الرحمن: ٥] (٦) الذي تتجلى فيه روعة

الصياغة، فالفعل (حسب) مصدره حساباً وحسباناً أي عدّه وأحصاه وقدره (٧)

والملاحظ هنا أن الحسبان تعني خصوصية الحساب ودقته، فمنازل القمر والشمس

مقدرة بحسابات متناهية في الدقة، إذ عليها يترتب نظام الكون وسير الأفلاك

والنجوم والحياة على سطح الأرض. وأن أي خطأ ضئيل يؤدي إلى خلل وارتباك

وكوارث لا تحمد عقبائها، ذلك أن مادة (فعلان) في المصدر لها معنى الخصوصية:

- غفر (غفران).

- شكر ( شكران ) .

- حسب ( حسابان ) .

فالفعل ( قرأ ) مصدره : قراءة ( أية قراءة في أي كتاب ) ، ولكن في قولك :  
( قرآن ) ينصرف الذهن إلى التلاوة في كتاب الله المنزل المسمى القرآن الكريم .

وفي قول الله تعالى :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ  
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ [سورة الكهف: ٤٠] (٨) .

حسباناً : معناها ( ضرر و مصيبة ) ولكن في هذه الآية الكريمة نجد معنى  
خاصاً هو " أي عسى الله أن يرسل عليها مصيبة بقدر هذه الأيكة دون زيادة  
أو نقصان " (٩) .

واستمراراً لدقة الصياغة الأسلوبية ، ففي نهايات الآيات داخل السور  
ما يبهر العقل ، ويأخذ بمجامع القلوب ، ففي سورة الإسراء وردت صيغة  
( المفعول المطلق المؤكد للفعل ) عشر مرات ، يلاحظ أنها جاءت في الأمور التي  
تقتضي التوكيد سواء أكانت أموراً مادية أم معنوية ، لذا فهي تؤكد وقوع الشيء  
وتحققه غاية التحقق ، واستمع إلى قوله :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مِّنْهُ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ وَالنَّهَارِ مُبَصَّرَةٌ لِّتَبْتَقُوا  
فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَضْلُهُ تَفْصِيلًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٢] (١٠)  
تجد أن المولى جل وعلا يؤكد لنا دون أدنى مجال للشك أنه  
فصل كل شيء ووضحه في كتابه العزيز .

وفي قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ  
فدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٦] (١١) تؤكد الآية الكريمة حقيقة الإهلاك  
ووقوعه للقريه التي يعمها فسوق مترفيها .

وللقرآن الكريم عظمتة ودقته في تشكيل الأفعال والمصادر ، ففي قول الله

تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١) [سورة الإسراء: ٣١] (١٣)

جاء المصدر ( خِطْئًا ) بالكسر ، لأن ( الخِطَاء ) بالكسر تعني الذنب الكبير المتعمد (١٣) ، ذلك أن من يقتل أولاده خشية الفقر يكون متعمداً ، أما ( الخطأ ) و( خطئنا ) بفتح الخاء والماء في الفعل والمصدر قد يكون الأمر متعمداً أو غير متعمد .

وتحمل نهايات الآيات القرآنية من الأسرار ما يثير العجب ويخلب الألباب

ففي قول الله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) [سورة الإسراء: ٤٤] (١٤)

انتهت الآية الكريمة بقوله : إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فما علاقة هذه النهاية بمضمون الآية ؟ تخيل أنك وأنت جالس في منزلك أو وأنت سائر في الطريق تسمع كل ما حولك يسبح : المقعد يسبح ، والطاولة تسبح ، والحائط يسبح ، والأدوات تسبح ، فماذا يحدث لك ؟ ستصاب بالذهول ، وربما يختل العقل !! لذلك كان الله حلما بنا ومن حلمه أن جعلنا لا نفقه ولا نسمع تسبيح الأشياء من حولنا ، حلما ورحمة بنا من الفزع والاختلال ، سبحانه جل شأنه في علوه ، ونفعنا بمحكم كتابه .

## الهوامش

- (١) سورة فصلت آية ٣.
- (٢) سورة البقرة آية ٢٢.
- (٣) سورة الإسراء آية ٨٨.
- (٤) الأدب الجاهلي ، طه حسين ، ص ٧٢، الطبعة السادسة عشرة ، دار المعارف  
١٩٨٩.
- (٥) مختصر تفسير ابن كثير ، د/ محمد سليمان الأشقر، ص ٦٥٣، مجلد ٣، ط ٨  
دار الجبل ، بيروت ١٩٩٥.
- (٦) سورة الرحمن آية ٥.
- (٧) المعجم الوسيط ج ١، ص ١٧١.
- (٨) سورة الكهف آية ٤٠.
- (٩) خواطر التفسير للشيخ محمد متولي الشعراوي ( حديث مرئي في التلفاز ).
- (١٠) سورة الإسراء آية ١٢.
- (١١) سورة الإسراء آية ١٦.
- (١٢) سورة الإسراء آية ٣١.
- (١٣) المعجم الوسيط ج ١ ص ٢٤٢.
- (١٤) سورة الإسراء آية ٤٤.